الشـــعوذة(*)

تاليف لوسى مير

عرض : على محمد المكاوى

لاتزال العلوم الاجتماعية تعانى من الاختلاف حول مدلول المصطلحات الفنية التى تستخدمها مما لايساعد على وجود الوحدة الفكرية التى ينطلق منها كل المتخصصين . بيد انه لوســـاد الاتفاق على هذه المصطلحات لأنقـــذ البحث العلمى نفســه من الغرق فى متاهات المفاهيم وانطلق فيما بعدها صوب بناء الهيكل العلمى ذاته وتشييده على أرسى ما تكون الأسس .

واذا كان هذا الموقف يصدق على العلوم الاجتماعية بصفة عامة فانه أكثر صدقا على علم الفولكلور الوليد ، ولاسيما فى مجال من أدق واعمق موضوعاته وهو مجال « المعتقدات الشعبية » ، حيث لم تنل مصطلحاتها بعد القدر الكافى من الاهتمام والتحديد العلمى الدقيق . ولوحدث ذلك فانه يكون من جانب بعض المتخصصين وليس جميعهم . غير ان تقدم العلم وازدهاره رهين بتحقق هذه المرحلة من النضج الفكرى الـــذى يتجلى أبرز صـــوره فى دقة المفاهيم والاتفاق على مدلولاتها .

وازاء هـــذه المشـــكلات ظهرت كتب علماء الأنثروبولوجيا ومنهم لوسى مـــير Lucky Mair التى نعرض لكتابها المعنون بـــ : « الشعوذة » Witchcraft. . ويقع الكتاب فى مائتى وست وخمسين صفحة تضم أحد عشر فصلا تتناول بالتفصيل الشعوذة والمشعوذين من حيث دعاوى وجودهم، والوقاية من شرورهم ، والشك والاتهام ؛ والشعوذة وانشطار البدنة ، والتعامل معهم ، الوهم والحقيقة فى مجال محاكمات هؤلاء المشعوذين . وأخيرا يعرض الكتاب عرضا وافيا لنظريات الشعوذة ، ثم ينتهى بملاحظات وببليوجرافيا للكتب والمراجع المتصلة بالموضوع مرتبة أبجديا حسب المؤلفين.

وتؤكد « لوسى مير » فى بداية مؤلفها على انتشار الاعتقاد فى معظم انحاء العالم بأن البشر يستطيعون انزال الأذى وايقاع الضرر بزملائهم عن طريق تسخير بعض القوى التى لا يمتلكها ولا يقـــوى على تسخيرها الشخص

---

* Lucy Mair, Witchcraft, London, Weidenfeld and Nicolson, 1973.

العادى . وهى قـوى تعمـل فى الخفاء بحيث يصعب اكتشافها . وهـؤلاء البشر هم ما نسميهم « بالمشعوذين » .وفى هذا الصدد يهتم الانثروبولوجيون بالأشياء والافعال التى يأتيها المشعوذون،فى حين يهتم علماء النفس بالأفكار التى تدور حول نوع المشعوزين الذين يأتون الشر المشئوم .

والدليل على ذلك اننا نقبل تفسيرات ونصائح الطبيب حول المرض العضال الذى ألم بنا،وفى نفس الوقت الذى نقبل فيه ما يخبرنا به العرفاء من أسباب هذا المرض كغضب روح أحد الأسلاف علينا،أو كراهية المشعوذ لنا وبالتالى فهو وراء الكواليس يلعب دوره فى اصابتنا بالمرض .

وتطرح المؤلفة تساؤلا فى غاية الأهمية مفادة هل يمكن التخلى ببساطة عن الاعتقاد فى الشعوذة ؟ وتتجلى الاجابة عليه فى ضوء المقارنة التى ساقتها بين نمطين من المجتمعات ، **أولهما** هو المجتمع التكنولوجى المعقد الـذى نال أعضاؤه قسطا من التعليم ، فاذا أصابهم المرض سارعوا الى الطبيب وليس الى الجار لينهالوا عليه ضربا بالأيدى وركلا بالأقدام وليسحب نفوذه الشرير عليهم. **وثانيهما** هو المجتمع البسيط ذو المعرفة الطبية الضحلة حيث يمثل بؤرة ترتع فيها معتقدات الشعوذة ، وبالتالى تصبح سمة رئيسية تسم المجتمعات صغيرة الحجم والتكوين والعلاقات الأولية . ومن ثم فان تطور ونمو الوسائل الفنية العلمية السريع ... بما فيها الوسائل الطبية — هـو الذى يساعد على انحسار مدى الاعتقاد فى الشعوذة .

والملاحظ أن مجال الاعتقاد فى الشعوذة يتمثل فى الحالات الخطيرة والحظوظ العثرة كالمرض المزمن ، وعقم المرأة او الماشية . ودمار المحصول وبواره ، فى حين يعزو عند الجيران . وحتى بعض الأحداث التى لا يمكن تفسيرها كالسقوط من على السلم ، ويرد الاعتقاد فى هذه النوازل الى كائنات مشخصة personalized beings تنزل غضبها بالانسان وتعاقبه على ما قدمت يداه . ولذلك ينظر الناس فى افريقيا — مرتع هذه المعتقدات — الى المريض نظرة سخرية واستهجان لأن المرض عقاب رادع حل به جزاء وفاقا على ما ارتكب من الاثم والفواحش .

وتعزى هذه النوازل مباشرة الى غضب الأسلاف ، او الأرواح الأخرى التى تتصف بالخبث ومعاداة الحياة (عند المانوس Manus الذين درسهم فورشين Fortune) . كما تعزى ايضا الى الاله المعادى anti-god عند شعب لوجبارا Lugbara . أما اتباع البوذية فانهم ينسبونها الى الخطايا التى ارتكبوها فى الايام الخوالى . فى حين يعزو الصينيون سوء الحظ الى

عوامل عديدة لاتلقى فيها الشعوذة اية قيمة تذكر،بينما اليهود والمسيحيون يردونها الى الاله العادل الذى يختبر بها درجة ايمانهم وقوة عقيدتهم .

ولا يغيب عن « مير » أن تحدد الطريقة المنهجية لدراسة الشعوذة وهى ان يعايش الباحث مجتمع بحثه فى ظروفه العادية وفى جوانب حياته فى ضوء الملاحظة بالمشاركة . وتستشهد بايفانز برتيشارد Evans Pritchard الذى درس هذا الموضوع عند الزاندى بالسودان . وتوصل الى أن الشعوذة مادة موروثة كامنة فى داخل أجساد بعض الناس ، ويعتقدون بأنها قوة لايذاء البشر بدون اللجوء الى وسائل مادية . ولايمكن التحقق من وجودها عند شخص ما الا بعد وفاته وتشريح جثته .

غير أن أهم اسهامات « مير » فى هذا الصدد هو التمييز بين الشعوذة وبين السحر الضار Sorcery . وهنا تكمن الصعوبة لكونهما يشتركان فى صفة واحدة وهى « فعل الشر » . ومع ذلك فتميز السحر الضار باستخدام ممارسيه موضوعات واشياء مادية أما المشعوذ فهو لايستخدم شيئا من ذلك ، وانما يوقع الأذى بشخص ما بمجرد الميل نحوه . ثم ان المشعوذ قد ارتبط بالشيطان ونذر نفسه ليكون خادما مخلصا له ، اما ساحر الضرر فانه — وان تلقى من الشيطان اسس فنه — يمارس السحر الضار بحرية تامة وبلا تبعية . وأخيرا فان ممارسة الشعوذة تقتصر فى الغالب على النساء ، أما السحر الضار فانه يلتصق بالرجال .

ومن مظاهر التغير الحديثة فى السحر الضار ان ممارسيه بدأوا يشترون الصودا الكاوية Caustic Soda — فى تسوانا Tswana — لاستخدامها ضمن الأدوية التى يعالجون بها لتزداد فاعليتها مع غيرها من الأدوية التى يدسونها فى طعام الضحية . كما ان هؤلاء الأفارقة قد اوجدوا أضرحة جديدة للأرواح — تحت وطأة التغيرات الاجتماعية السريعة — لتحمى من يوقرها من أذى الشعوذة . ولذلك يصفها فورتس Fortes بأنها : « اكثر الأعراض الدرامية للاحساس المتزايد بافتقاد الأمان الاجتماعى والشخصى » .

وتدل المظاهر الآخرى على قرب انحسار الشعوذة فى المدن ، ذلك لأن طريقة الحياة الحضرية تبطل الطرق التقليدية وتعاقب من يلوذ بها على اساس أنها غير قانونية . أما الريف فلا تزال الشعوذة ترتع فيه . ومن ذلك مثلا أن المرض العضال الذى يلم بالقروى يرده اما الى : ١ — غيرة زملاء العمل . ٢ — او غضب أسلاف أبيه (أجداده) ، ٣ — او نقمتهم

عليه لعدم قيامه بالطقوس الجنائزية لأعضاء شبكته القرابية ، ٤ ــ أو نقمة أمـــه عليه لتفريطه فى التزاماته حيال اقربائها .

ويستتبع ذلك سعى الأهل حثيثا لاسترضاء هـــؤلاء جميعا . ولذلك تكون بصدد ثلاثة انماط من انشطة الوقاية من الشعوذة وهى .

١ ــ عبادة الأرواح ، أو الطلاسم التى يعتقد بأنها تصف الداء وتحدد الدواء .

٢ ــ انشطة الكشف عن المشعوذ ومواجهته بالمتنبئين المنجولين .

٣ ــ طقوس الكنائس الجديدة التى تحللت من القواعد الصارمه التى وضعتها البعثات التبشرية المسيحية .

وتتمثل خلاصة هذه الأنماط فى القاء الضوء على المشعوذ لمعرفته ، ووقاية البرىء من الســـوءات ، وتصم ظهر من يتهم مستقبلا بممارســـة الشعوذة . ولكن الظريف ان وسائل الكشف عن المشعوذ متعددة ومنها :

ــ ممارسة طقس الأورديل ordeal (الامتحان الالهى أو البشعة) .

ــ تغميد الناس فى مياه النهر وتمييز المشعوذ من بينهم على أساس أن الماء لا يعلق بشعره وقد فعل سيمون كيمبانجو S. Kimbange بنى الكنغوا هـــذه الحيلة .

ــ نشاط اتباع مذهب الآتنجا Atinga الذين يدعوهم الرؤساء لزيارتهم وتمييز المشعوذين من بين مجموع الراقصين رقصة تنجا .

ــ ذبح دجاجة امـــام المشكوك فى ممارسته للشعوذة ، وتتحدد اجابته ، من خلال الطريقة التى تخر بها الدجاجـــة صريعة ، فيستطيع العراف تمييز المشعوذة ويواجهها بالاعتراف والالتفاف حول الأشياء التى تستخدم فى السحر الضار وبذلك تم الكشف عن أربعمائة وثـــلاث وثمانين مشعوذة بمســاعدة اتباع مذهب آتينجا .

وتنتظم نظريات الشعوذة الرئيسية فى ثلاث فئات هى :

(أ) فئة تبحث فى السبب والانتشار ويسأل اصحابها عن سبب وجود هذه المعتقدات وسبب انتشـــارها على نطـــاق واسع ، وكـــذلك سبب التشبث بهـــا .

(ب) فئة النظريات الوظيفية ويركز اصحابها على وظيفة هـــذه المعتقدات

فى المجتمعات التى توجد فيها ، واسهامها فى تدعيم العلاقات الاجتماعية المنظمة .

(ج) فئة ثالثة يسعى انصارها لاقامة ارتباطات بين توجيه الاتهامات بممارسة الشعوذة وبين بنية المجتمعات المختلفة .

غير أن أبرز هذه الفئات جميعا هى النظريات الوظيفية التى تنقسم الى نظريات وظيفية واسعة النطاق تبرز دور المعتقدات فى الوجود الاجتماعى والوفاء به بطريقة او بأخرى . أما النوع الثانى فهو نظريات وظيفية ضيقة النطاق وأقل طموحا وهى — مهما كانت نقائصها — تقدم اسهاما ما للغاية المرغوبة اجتماعيا . وتذهب هذه النظريات الى أن معتقدات الشعوذة تيسر تكيف الأفراد مع المجتمع الذى يعيشون فيه . كما انها تمكن الناس من أن يجدوا متنفسا لقلقهم ومتاعبهم النفسية ، ويجدوا اسما لما يعانون منه . وهى تقدم بديلا يحل محل العدوان والقلق . فالناس الذين يرتبون للتشاجر مع آبائهم أو ذوى الأرحام — وتحول قواعد السلوك الاجتماعى دون الجهر بهذا العراك أو البدء به — يلجأون الى انزال جام غضبهم وسخطهم على شخص تخيلى تبدو مشاعر الكراهية له والخوف منه واضحة صريحة . وبالتالى يتيح الاعتقاد فى الشعوذة فرصة التنفيس عن المشاعر العدوانية ضد أعضاء الجماعة القرابية فى صورة أشخاص آخرين ليسوا من هذه الجماعة ولا تقيد سلوكهم العدوانى ازاءهم أية قيود اجتماعية .

وبالاضافة الى هذه الوظائف تضطلع معتقدات الشعوذة بوظيفة التعرف على الصراع الكامن فى هذه التوترات ومحاولة حلها بالاجراءات القضائية ونمط الفظاظة rudness الموجهة المسموح به فى علاقات المزاح joking والاتهامات الموجهة للشعوذة . ولكن صور العداء بين أعضاء الجماعة الواحدة ذات الكيان الواحد لاتطفو على السطح وبالتالى فلا يتيسر حلها الا باتهامات الشعوذة . كما أن الاعتقاد فى الشعوذة يؤكد ويدعم التضامن عن طريق « التحديد الدرامى لما هو سىء » .

ولعل أهم الوظائف قاطبة الوظيفة الاخلاقية حيث يدفع الاعتقاد فى الشعوذة الى الأخذ بالرمز المقبول للسلوك ، والاحترام والتوقير لكل ما هو معتدل ، ونبذ ما تؤتيه المشعوذات ، ومن ثم ينعكس كل ذلك فى تدعيم النظام الاجتماعى . علاوة على ذلك ، يقدم الاعتقاد دليلا هاديا للتصرف

ازاء الأزمات التى تترى على كاهل المرء — حتى وان كانت راجعة الى سوء سلوكه او سوء تعامله — فهى تمكنه وتمكن سائر الناس من التصور بأنهم يخطون بثقة خطوات راسخة نحو الخلاص من هذه الأزمات وتلك الكوارث .

ويمثل توجيه الاتهامات ومسارها الفئة الثانية من الاتجاهات النظرية فى دراسة الاعتقاد فى الشعوذة . فيغلب القول بأن هذه الاتهامات ليست عشوائية اذا علمنا أن ضحايا عثرات الحظوظ وسوءاتها يلقون بالتبعة على أعدائهم مباشرة . وقد أولى الأنثروبولوجيون فريد اهتمامهم لنوعية الأشخاص الذين تلصق بهم تهمة الشعوذة فى بعض العلاقات الاجتماعية الخاصة . فقد اجرى نادل Nadel دراسة على أهل النوبة ولاحظ ان توجيه الاتهام يكون ناحية أعداء ابناء الأخت فى ظل النظام الأمومى . وقد قام جو فرى لينهاردت Lienhardt ايضا بدراسة على الدنكا بالسودان .

غير أن هذه الاتهامات تسود مجتمعات صغيرة الحجم وتوصف بأنها قبائل بلا حكام . وتمثل تلك الاتهامات لونا من المنافسة السياسية للفوز بمكتب رئيس القبيلة . ومن هنا يظهر نمطان من أنماط التفسير النظرى يبرز اولهما خصائص الاتهام ويفسرها بالتوترات فى العلاقات الاجتماعية الخاصة ويضفى ثانيهما قيمة اجتماعية على هذه التوترات لأنها (أى الاتهامات) تخفف من حدتها . ويسمى هذا النمط الوظيفى بالنظرية المسكنة (أو الملطفة) Cathartic Theory .

ولكن الطريف أن هذه الاتهامات تصوب شطر النسوة من بعنة رافع الاتهام واللائى تزوجن برجال من البعنة المنافسة . وبالتالى فان القضية المعبرة عن هذه الحالة تتلخص فى « أن التوترات بين الرجال يتم التعامل معها وتناولها كما لو كانت توترات فقط بين النسوة » .

وعلى العموم تتبقى الفئة الثالثة من الاتجاهات النظرية فى دراسة الشعوذة ، وهى فئة تربط بين الشعوذة وبين بنية المجتمع حيث تعمل معتقدات الشعوذة على العصف بالأجزاء النخرة من البناء الاجتماعى وتلقى الضوء على اللبنات الصلدة لكى تستخدم فى اعداد وتطوير الأجزاء الجديدة .

وقصارى القول اننا — بعد هذا العرض — فى مسيس الحاجة الى دراسة تراثنا الشعبى ولاسيما المعتقدات الشعبية التى تضرب بجذورها فى كافة جوانب حياتنا الاجتماعية والثقافية . وهى حاجة ملحة تفرض نفسها فرضا من أجل فهم ديناميات التغير الاجتماعى فى بلادنا وفهم شخصيتنا المصرية حق الفهم . ومن ثم فنحن مطالبون باجراء مثل هذه الدراسات لتراثنا الشعبى للتعرف على ابرز شخصاته واتجاهات تطوره .